يعتزل تيار الحياة ؟ لقد كان إشعاع القرآن قوياً فياضاً بالرغم من كل الظلام الذى كان حوله ، بدليل أن الظلام قد انقشع ، وبقى القرآن يمد فى إشعاعه . ويخترق الحواجز ، ويجتاز الفيافى والبحار ، ويغير معالم الأرض والتاريخ .

إن فى اعتبار عصر البعثة النبوية عصراً جاهلياً إغفالا للحقيقة التى لا ينبغى أن تخفى على أحد ، فما كانت لتتتابع فصول المعجزة الكبرى — وهي معجزة بيانية — وتتلاحق أجزاؤها فى قلب البيئة الجاهلية دون أن يكون لها ذلك الصدى البعيد فى عقول الناس ومناحى تفكيرهم ، وهـذا الأثر العميق فى ألسنتهم وألوان تعبيرهم . إذ كيف يرتفع صوت الدعوة ليملأ سماء الجاهلية دون أن يرتد صداه فى الأدب شعره ونثره ، وكيف يمكن أن يختلف دين القوم وتختلف قيمهم الخلقية دون أن يتبع ذلك تطور فى الأدب وتحول فى أفكاره وأساليبه[1] . ومهما يكن من أمر بطء التحول والتطور الذي قد يتخلل طبيعة الأدب أو يسرى فى كيانه ، فليس من طبيعة الأمور أيضاً أن يقف الأدب موقف الجمود أو الركود ، والحياة من حوله تثور ثورتها ويجرى فى عروقها فى كل يوم دم جديد والأدب فى الحياة كما قلنا أقوى مصور لها ومعبر عنها فما دامت آيات القرآن تتلى ، فلا يمكن أن يكون أثرها محصوراً على الناحية الدينية والخلقية والاجتماعية وحـدها دون أن يمتد ذلك إلى الناحية الأدبية . ومع آيات القرآن كانت أحاديث الرسول تواكبها وتسير فى ركابها . وكانت عملية التطور تعمل عملها فى قوة ، وحركة

---

(١) يقول الدكتور شوقى ضيف : « هـذا الأسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ولا لاحقة فى العربية هو الذى أقام عمود الأدب العربى منذ ظهوره ، فعلى هديه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات فى موضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وبحيث تجلى عن مغزاها ، مع الرصانة والحلاوة » ـ العصر الإسلامى ـ ص ٣٤ .